الفصل الأول:

الفكر في المصادر الإسلامية

مقدّمة:

لعلّ من المناسب أن نبدأ الفصل الأول من هذا كتاب "البناء الفكري" بالتأكيد على أننا نتحدث عن الفكر الإسلامي، لذلك فإنّ مرجعيتنا في هذا الحديث هي المرجعية الإسلامية في مصادرها التأسيسية في القرآن الكريم والسنة النبوية أولاً، ثم في فهم علماء الإسلام عبر العصور للقرآن والسنة، وهو ما نسميه التراث الإسلامي. وحتى لا تنحصر دلالة الفكر إلى شيء مما جرى التأكيد عليه في التراث الإسلامي من انشغال القلب بتوحيد الله سبحانه والزهد بالدنيا، عن عمران الأرض بشريعة الله، وتحقيق الأمن والعدل فيها، جاء الاستدراك على بعض صور الفهم التي ربما توحي بها بعض نصوص التراث، للتأكيد على أنَّ تلك النصوص كُتبت في ظل المجتمع المسلم، حيث كانت تتكامل فيه حقائق التوحيد والتزكية والعمران، وكان لكلٍّ مجال من هذه المجالات روَّاده ومختصوه.

أوّلاً: الفكر في القرآن والسنة النّبوية الشّريفة

الفكر تعبير عن فعل يقوم به الإنسان، وهو اسم لثمرة هذا الفعل، وفكّر يفكّر تفكيراً؛ أي مارس نشاطه الذّهني فهو مفكّر، والمفعول مفكّر فيه، و التّفكير هو إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى

مجهول، وفي القرآن الكريم وردت مادة الفكر في ثمانية عشر موضعاً في خمس صيغ كلّها في صفة الفعل، منها مثلاً:

- فكّر: الآية ١٨ من سورة المدثّر.

- تتفكّروا: الآية ٤٦ من سورة سبأ.

- يتفكّرون: إحدىٰ عشر مرة، منها الآية ١٩١ من سورة آل عمران، والآية ١٧٦ من سورة الأعراف.

وواضح أن التفكّر بالتّشديد لا يعني مجرّد ورود الخواطر في الذّهن بالصورة المعهودة، وإنّما يعني أيضاً الوعي والمتابعة والمعاودة، كما يعني التفكر قرآنياً التكامل في موضوع التفكير أي في الدنيا وفي الآخرة، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]؛ أي ليحصل للأمة تفكّر وعلم في أمور الدّنيا وأمور الآخرة.

ويمكن بعد الاستقراء لمعاني مادة الفكر في القرآن الكريم، الخروج بعناصر تحدد معناه، هذه العناصر هي الآتي :

- عملية بذل الجهد الفكري، أو إعمال الفكر والعقل في أمور معلومة لتحقيق أهداف وغايات محدّدة وجديدة.

- وهو عملية تتم بتكرار الانشغال بالهمّ الفكري و معاودته ومواصلته حتى تتحّقق النتائج المرجوة.

- وثمة مادة للتّفكّر، يلزم فيها استجماع الذّهن والخاطر على عناصرها، وتفاصيل موضوعها ودقائقه.

- والمهم وهو نتيجة التفكّر، وذلك هو تحقق الهدف المنشود، من إعمال الفكر، ومما ينطوي عليه الهدف الاعتبار أو أخذ العبرة.

أما في الحديث النبوي فقد ورد أيضا في مواقع كثيرة بألفاظ العقل والنّظر والتدّبر، منها الحديث النبوي الشريف، حديث ربيعة بن كعب الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده يقول:"فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي فَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مَنْقَطِعَةٌ زَائِلَةٌ."

ثانيا: الفكر في التّراث الإسلامي

ورد مصطلح الفكر والتفكّر، في كثير من كتابات العلماء في التراث الإسلامي، وذلك بوصفه عملية ونتاج هذه العملية. ورد المصطلح في عناوين بعض مؤلفاتهم، نظراً لأن الجهد الذي كان يقوم به المؤلف إنما هو نتاج فكره في موضوع الكتاب، لكن ذلك لا يعني ذلك بالضرورة أنَّ الفكر هو موضوع الكتاب التراث الإسلامي. لكن ثمة كتباً جعلت من الفكر موضوعا لها، أو عقدت له أبوابا في مصنَّفاتها، يجدر بنا أن نعرف كيف فهمت الفكر، وكيف بيّنت دلالته، أورسمت خريطة لبنائه وتنميته.

وسوف نكتفي بالإشارة إلى ثلاثة من أهل العلم بينهم أزمان متباعدة، ولكل منهم نشأته ومدرسته وظروفه، ومع ذلك فإن عرضهم لقضايا العقل والتفكر تكاد تكون متطابقة. وهؤلاء هم: الحارث المحاسبي (توفي: ٢٤٣هـ)، الذي تحدث عن العقل ومعانية واختلاف الناس فيه، وذلك في كتاب: «العقل وفهم القرآن»،[١] وأصبح هذا الكتاب منهجه في كتاباته الأخرى. وثانيهم أبو حامد الغزالي (توفي: ٥٠٥هـ)، الذي كتب فصلاً نفيساً بعنوان "كتاب التفكر" وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من إحياء علوم الدين. وثالث الثلاثة هو ابن قيم الجوزية (توفي: ٧٥١هـ) الذي خصص كتاباً كبيراً في العلم والتفكر هو كتاب: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة». ونلاحظ أن بين الأول والثاني نحو قرنين ونصف من الزمان، وبين الثاني والثالث نحو قرنين ونصف كذلك.

واحد من كتب الإمام المحاسبي المنشورة، كان بعنوان كتاب «العقل وفهم القرآن»، وهو في الأصل كتابان، الأول: "ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه"، والثاني: "فهم القرآن ومعانيه". أما الأول فيبدو أن الحارث المحاسبي أوضح فيه موقفه من الجدل الذي كان يدور حول صحة الأحاديث المروية بشأن العقل، وذلك في ردّ فعل على ثقافة العصر الذي عاش فيه، وكان يُعدُّ عصر الاعتزال. وإذا

(١) المحاسبي، الحارث بن أسد. **العقل وفهم القرآن**، قدم له وحقق نصوصه: حسين القوّتلي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧١م.

كان المعتزلة ينوِّهون بموقع العقل في الدين، ويستندون إلى أحاديث مروية عن العقل، فإن المحدّثين بزعامة الإمام أحمد بن حنبل، يواجهون المعتزلة بإنكار صحة هذه الأحاديث. أما موقف المحاسبي الذي بدأ حياته محدِّثاً، فرأى أنّ هذه الأحاديث تتفق مع دلالة الآيات القرآنية، وأن الصحابة والتابعين وتابعيهم رَوَوْا أقوالاً في العقل لا تخرج عن سياق تلك الأحاديث. وهو في طريقته -في هذا الكتاب الصغير في حجمه "العقل"- مثل طريقته في كتابه الكبير "الرعاية لحقوق الله"؛ إذ يبدأ بالقرآن الكريم، ثم بالسنة النبوية، ثم بالآثار المروية عن الصحابة والتابعين، ويؤكد بناءً على ذلك ضرورة أن "يَعْقِل" المؤمن ما جاء في كتاب الله؛ أي أن يتقن فهمه وبيانه، ولذلك نجد عبارته عن فعل العقل تكاد تتكرر في كل فقرة من الكتاب "عَقَلَ عن الله ..."فالفهم والبيان يسمى عقلاً؛ لأنه عن العقل كان."[1]

ويختم المحاسبي كتاب العقل بتوضيح دلالة العقل ومعناه ومركزيته في عمل الفرد الإنساني، فيقول: "ولا غَنَاء بالعبد عن التفكير والنظر والذكر، ليكثر اعتبارُه ويزيدَ علمُه، ويعلوَ في الفضل، فمن قلّ تفكُّرُه قلّ اعتبارُه، ومن قل اعتباره قلّ علمُه، ومن قلّ علمه كثُرَ جهلُه، وبان نقصُه، ولم يجد طعمَ البِرِّ، ولا بَرْد اليقين، ولا روحَ الحكمة. وما بلغ عِلْمُ من درس العلم بلسانه وحفِظَ حروفَه بقلبه،

---

(١) المحاسبي، **العقل وفهم القرآن**، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

وأضْرَبَ عن النظر والتذكر والتدبر لمعانيه وطلب بيان حدوده... وأيّ سرور ظَفِرَ به يعدلُ سرور العلم، وروح اليقين وعظيم المعرفة وكثرة الصواب، والظفرَ الذي لا يثبت ولا يُنال إلا بحسن النظر وطول التذكر وتكرار الفكر."[1]

وفي الحديث عن أثر الإمام المحاسبي في الفكر الإسلامي نكتفي بذكر ما رواه أبو حامد الغزالي في كتابه: «المنقذ من الضلال» من وقوعه في الحيرة والقلق، وسعيه للخروج منها باستقصاء ما عند الفرق التي كانت معروفة في عصره، بدءاً بكتابات المتكلمين، ثم الفلاسفة، ثم الباطنية، وأخيراً الصوفية، فأشار إلى أنه ابتدأ "بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب" لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي..."[2] ومع أنَّ أبا حامد لم يذكر الكتب التي قرأها للمحاسبي، فإن في كتاب المنقذ من الضلال كلاماً أشبه ما يكون بألفاظه ومعانيه بما جاء في كتابات المحاسبي، فضلاً عن الموضوعات الكثيرة التي طرقها الغزالي في «الإحياء» على نهج «الرعاية» للمحاسبي.

وقد عقد الغزالي في كتاب التفكّر من ربع المنجيات من إحياء علوم الدّين، كلاماً عن حقيقة الفكر وثمرته، وبيان مجاري الفكر

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد. **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال**، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، بيروت: دار النفائس، ط٧، ١٩٦٧م، ص١٠٠-١٠١.

وبيان كيفية التفكّر في خلق الله تعالى،[1] فالفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلّها، وعن الفكر تتولدّ العلوم والمعارف، ولواحقها في الأحوال والأعمال، فالغزالي أراد أن يلفت النّظر أن الفكر هو مفتاح الدخول إلى ذات الإنسان، حيث يستحيل هذا الفكر بعد أن تستقيم مسائله، يستحيل علماً، هذا العلم ثمرته الأحوال في القلوب، وثمرة هذه جميعاً الأعمال أو فعل الجوارح.[2]

وينقل أبو حامد الغزالي عن الحسن البصري قوله: "إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة."[3]

ولا يختلف ابن القيم الجوزية عن أبي حامد الغزالي في التأكيد على قيمة العقل وفضيلة التفكر وبيان فوائدهما على الإنسان، وابن القيم لا يرصد مراحل التّفكر إلا لأجل هدف أخلاقي؛ هو صلاح الإنسان وإمساكه بفكره كي لا يضل به خارج ما أمره الله به، لأن الخير والسعادة جمعتا في خزانة مفتاحها التفكّر. ويعدد لنا خمسة أمور عليها مدار التفكّر، هي تواليًا: "الفكر وثمرته العلم، وثمرتها الحالة التي

---

(١) الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد. **إحياء علوم الدين**، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤م، ج٥، ص ٣-٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٧-٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٥-٦.

تحدث للقلب، وثمرة ذلك الإرادة، وثمرتها العمل... فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وبالجملة فاصل كل طاعة إنّما هو الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنّما يحدث من جانب الفكرة."[1]

ومن اللافت للانتباه أن تقسيمات ابن القيم لموضوع التفَكُّر تكاد تتطابق مع تقسيمات أبي حامد الغزالي، لكنها أكثر تفصيلاً، بل إنّ كثيراً من الاقتباسات التي ضمّنها ابن القيم مادة كتابه "مفتاح دار السعادة" من أقوال السابقين، هي الاقتباسات نفسها التي كان الغزالي قد ضمّنها كتابه "إحياء علوم الدين"، رغم ما بين العالمين الجليلين من زمن يتجاوز قرنين ونصف القرن، وعلى ما بينهما من اختلاف في الانتماء الفقهي والتوجه الكلامي والفلسفي.

ويعود ابن القيم إلى الحديث عن التفَكُّر في كتاب آخر له لا يقل أهمية عن كتاب «مفتاح دار السعادة»، ذلك هو كتاب «الفوائد» وفيه يتحدث بقدر من التفصيل كذلك عن علاقة الأفكار والأفعال وما بينهما من عمليات تحوُّلٍ وتطوُّر في ذات الإنسان، فيقول: "مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار،

---

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم و الإرادة**، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الرياض: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص ٥٦٢.

وفسادها بفسادها."[1]

ويميز ابن القيم بين التذكّر والتفكّر فيقول: "التفَكُّر والتذكّر أصل الهدىٰ والفلاح وهما قطبا السعادة،... فأعلم أن التفَكُّر طلبُ القلب ما ليس حاصل من العلم من أمر هو حاصل منها، هذا حقيقته، فإنه لو لم يكن ثَمَّ مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه، فإذا عرف هذا فالمتفكِّر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلىٰ المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي اجتنابه. فالتذكر هو مقصود التفَكُّر وثمرته ... فإذا تذكَّر عادَ بتذكُّره علىٰ تفكُّره ما دام عاقلاً؛ لأنَّ العلم والإرادة لا يقفان علىٰ حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة. وإذا عرفت معنىٰ كون آيات الرب تبارك وتعالىٰ تبصرة وذكرىٰ يتبصر بها من عمىٰ القلب، ويتذكر بها من غفلته فإنَّ المضاد للعلم، إما عمىٰ القلب وزواله بالتبصُّر، وأما غفلته وزواله بالتذكُّر."[2]

إن الحديث عن الفكر في التراث الإسلامي لا يقتصر علىٰ ما أورده هؤلاء العلماء الثلاثة؛ إذ يندر أن نجد مؤلفاً في كتب العقيدة

---

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. **الفوائد**، القاهرة: مكتبة الجامعة، ط٤، ١٩٨٠م، ص ٢٢٨.

(٢) ابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، مرجع سابق، ص٦٠٦-٦٠٧.

والكلام، أو كتب الفقه والأصول، أو كتب التفسير، فضلاً عن كتب التزكية والتصوف لا يتحدث عن الفكر والتفكر والتذكر والتدبر والتعقل والنظر والاعتبار، وغير ذلك من المسميات التي تحيل إلى الفكر الإنساني.

ثالثاً: الفكرُ توحيدٌ وتزكيةٌ وعمران

من المفيد أن نستدرك على ما قد يسبق إلى الخاطر من فهم كلام المحاسبي والغزالي وابن القيم وغيرهم من العلماء الذين عرفوا بكتاباتهم عن التزكية، وذلك بالتأكيد على أنّ عمليات التعقل والتفكر والتذكر التي يقوم بها الإنسان، من أجل الاتصاف بالتقوى، والزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، لا تعني بالضرورة عدم الأخذ بنصيب الإنسان من الدنيا، فمجالسة العلماء وحضور دروسهم، والرحلة إليهم طلباً للعلم، والسعي في مناكب الأرض، طلباً للأكل من رزق الله، وإتقان متطلبات المهنة في الحياة، من تجارة وزراعة وحرفة، كل ذلك من نصيب الدنيا، وكلُّه يتطلب تعقّلاً وتفكّراً وتذكّراً، فضلاً عما يلزم المؤمن من التفَكُّر والتذكر في ثواب المجاهدين في سبيل الله والمرابطين على الثغور، والنفرة في هذا السبيل. ونستطيع أن نجد في نصوص العلماء الثلاثة الذين أشرنا إليهم ما يؤكد عدم غفلتهم عن التفكر في متطلبات العمران في الدنيا.

فالتدبر للآيات القرآنية بصورة عامة وللتفكر في الآيات الكونية منها، والاعتبار من قصص العابرين، كل ذلك يهدف إلى أن يقود في

نهاية المطاف إلى الإيمان بالخالق؛ بوحدانيته وأسمائه وصفاته، ومن ثم السعي الحثيث في تزكية النفس بطلب رضوان هذا الخالق الواحد، وتجنب سخطه. ولكن ما الذي يحصل في الطريق إلى هذه النهاية، وأثناء السعي، وقبل الوصول؟! كيف لا يقود طول التفَكُّر والاعتبار والتدبر، أثناء ذلك السعي إلى بناء الفكر والعلم والفهم والاكتشاف؟

ومن أين تأتي السنن والقوانين والنظريات، إذا لم تكن صياغات علمية لذلك العلم والفهم والاكتشاف وما يلزم ذلك من قياس وتجريب؟!

وما قيمة هذه العلوم والاكتشافات إن لم يصاحبها تطبيقات عملية ومنافع حقيقية تيسر للسالكين سبل السعي في هذه الحياة الدنيا على هذه الأرض، وحمل الأمانة في الدنيا، والقيام بحق الخلافة في الأرض، وإدراك الدلالات العملية لآيات التسخير، والتبصُّر في آيات التمكين؟

فالتجارة والصناعة والزراعة وسن القوانين والتشريعات، التي تضبط الأمن وتحمي الطريق، وتنظيم تفاصيل العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول.. وإدارة أمور الاجتماع والاقتصاد والسياسة... كل ذلك علوم نافعة، لماذا لم يسبق إليها المؤمنون بالآخرة وهم في طريقهم إليها يتفكرون ويتدبرن؟ ألم يكن بالإمكان أن تنمو هذه العلوم وتكون امتداداً للبذور التي زرعها السابقون من العلماء في أبواب فقه المعاملات؟

لو تحقق الجمع بين التوحيد والتزكية والعمران، سوف تصبح الآيات الكونية، والآيات النفسية، والآيات الاجتماعية، والآيات التاريخية، وكل آيات القرآن الكريم عناوين لموضوعات التفَكُّر والتدبر والاعتبار، وموضوعاتٍ للمشاريع البحثية المتعمقة التي توسع فضاءات العلم يوماً بعد يوم. وتجعل الأمة المسلمة في موقع الخيرية والقيادة والريادة.

ومن ناحية أخرىٰ يكون من المفيد كذلك أن نشير إلىٰ التعقل والتفكر والتذكر، كما يقوم به المؤمن، طلباً لما يريده من شؤون الدنيا والآخرة، يقوم به غير المؤمن كذلك، طلباً لما يريده من العلم في ظاهر الحياة الدنيا، وبعض الناس يصل بهم إتقان عمليات التفكير في فنون العلم إلىٰ حدّ العجب.

رابعاً: الفكرُ إيمانٌ وعلمٌ وعملٌ

إذا كان الإسلام في جوهره : إيمان وعلم وعمل، فأين موقع الفكر من هذه المفاهيم الثلاثة؟

لقد أكد علماء الإسلام من خلال النَّماذج التي أوردنا، علىٰ أهمية الفكر وقيمته المصيرية بالنسبة للإنسان، وتبين لنا أنَّ الفكر هو عنصر أساسٌ في هذه الثلاثة. ونذكِّر في المقام مرة أخرىٰ بنص ابن القيم: "مبْدَأُ كلِّ **عِلْم** نَظَرِي **وعَمَلٍ** اختياري هو الخواطرُ **والأفْكار**؛ فإنَّها تُوجِبُ التصوُّرات؛ والتصوُّراتُ تدعو إلىٰ الإِرَاداتِ؛ والإراداتُ

تقْتَضِي وقوعَ الفِعْل؛ وكثرةُ تِكْرَارِه تُعْطِي العادةَ؛ فصَلَاحُ هذه المرَاتِبِ بِصَلاحِ الخَوَاطِرِ والأَفْكَار، وفسادُها بِفَسَادِها."[1] ولعل النظر في الاقترانات القرآنية بين مفاهيم الإيمان والعلم والعمل يسهم في فهم موقع الفكر في هذه المفاهيم الثلاثة.

١ - اقتران الإيمان والعلم:

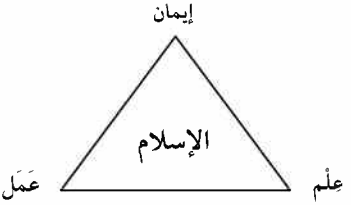

إن التَّلازم بين الإيمان والعلم في الإسلام هو في الحقيقة تلازم بين الإيمان والفكر، فبواسطة الفكر يتم معرفة آيات الله، واكتساب اليقين بصدقها وحقيقتها، ودون تفكُّر في آيات الله يكون الإيمان إيماناً وراثياً لا إيماناً ذاتياً. يحتاج الإنسان من أجل العمل بمقتضيات الشريعة إلى تذكُّر عناصرها، وتدبُّر مضامينها، والاعتبار بقصصها وبتاريخ الإنسانية المبثوث فيها. وفي الرؤية الإسلامية يحمل العلم مفهوما واسعا، وذلك انسجاما مع شمولية التفكر من منظور الرؤية الإسلامية، فالعلم الذي يورثه التفكر يكون علماً بالأشياء وهي **العلوم الطبيعية والمادية**، ويكون علماً بحقائق السلوك والنفس والمجتمع، وهي **العلوم الإنسانية والاجتماعية**، ويكون علماً بمسائل العقائد والإيمان، وهي **علوم الشريعة**. وكلها يمكن أن تكون علوماً نافعة.

---

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. **الفوائد**، تحقيق محمد عزير شمس، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ، ص ٢٥٢-٢٥٣.

وقد أعلى الله سبحانه من قيمة العلم النافع وحث عليه وفضل العلماء، وذكر كيف أنَّ الله سبحانه فضَّل بعض من اصطفاهم من الناس بعلم نافع، فكانت قيمة العلم ومنفعته عندما يوَظِّف العالِمُ عِلْمَه في عَمَل مفيد؛ فذو القرنين يوظِّف علمه في الهندسة والعمران وعلوم المعادن، ليَبْنِي جداراً منيعاً يَحْمِي أولئك الضعفاء بين السدين من فساد يأجوج ومأجوج، ونَبِيُّ الله يوسف عليه يوظِّف بعلمه في الاقتصاد والتموين برنامجاً اقتصادياً يَحْمِي به الشعوب التي كانت تسكن مصر والمناطق المجاورة من المجاعه، ونَبِيُّ الله نوحٌ عليه السلام يوظِّف ما علَّمه الله سبحانه من علم، فيبني بعلمه في النجارة سفينة ضخمة تنقذ من آمن معه، وتبقي على أصناف الكائنات التي تحتاجها البشرية من أن يهلكها الطوفان. ومثل هذه القصص الكثيرة في القرآن الكريم دعوة إلى الأخذ بأسباب العلم، فهو متاح لمن يطلبه ويجتهد في اكتسابه.

ويخطئ من يظنّ أنَّ الفكر والثقافة مجال خاص لاهتمام فئة من الناس، تختلف عن فئة أخرى تنشغل بقضايا الإيمان، وكأنَّ صاحب الفكر ليس مطلوباً أن تظهر عليه مظاهر الإيمان والخلق وحسن السلوك، أو كأنَّ المؤمن التقي الذي يكثر من العبادة ويقل طمعه في الدنيا هو إنسان جاهل لا عِلْمَ عنده، ولا فكر له ولا ثقافة.

٢- اقتران الإيمان والعمل:

في القرآن الكريم إحدى وخمسون آيةً يقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح، اقتراناً لفظياً، مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. والمعنى الشرعي المعروف للإيمان عند العلماء أنه قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. أو هو نظر وعمل، فبالنظر يتحقق العلم والفكر، وبالعمل تتحقق الاستجابة لمتطلبات النظر من سلوك وممارسة. إن اقتران "الذين آمنو وعملوا الصالحات" في القرآن الكريم جاء في غالب المواضع بصيغة الجمع: فالذين آمنوا جماعةٌ، والذين عملوا الصالحات جماعةٌ، فالجماعة المؤمنة توحَّدت على رؤية علمية، ثم جاءت أعمالها الصالحة وفقاً لتلك الرؤية، وفي ذلك دلالة مهمة في تحقيق النهوض الحضاري للأمة، فتحقيق ذلك هو شأن الجماعة والأمة، ومن ثم بناء تصور مشترك بين أفراد الجماعة والأمة، وهذا التصور هو الإيمان الذي هو منطلق للعمل الصالح.

٣- اقتران العلم بالعمل :

لا خلاف على أنَّ مفهوم "العبادة" في الإسلام يتسع ليشمل كل الأفعال الاختيارية التي يقوم بها الإنسان طلباً للأجر والثواب والتقرب من الله سبحانه، وتنفيذاً للأحكام والشرائع التي جاء بها دين الله. ومعرفة ما يكون به الفعل تقرباً إلى الله -وليس شهوة نفسية أو بدنية- يحتاج إلى علم، ومعرفة أحكام الله وشرائعه لتنفيذها يحتاج إلى علم. ولذلك تحدث العلماء عن "اقتضاء العلم العمل"[1] وعن تلازم العلم والعمل؛ إذ إن "العبادة ضربان: علم وعمل. وحقهما أن

---

(١) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت. **اقتضاء العلم العمل**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٤م.

يتلازما، لأنَّ العلمَ كالأُسِّ والعملَ كالبناء، وكما لا يغني أُسٌّ ما لم يكن بناء، ولا يَثْبُتُ بناءٌ ما لم يكن أسٌّ، كذلك لا يغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم."[1] وأوضح من ذلك تصريح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّ العملَ علمٌ، فعن أنس بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله عز وجل". قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله". قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرني عن العلم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل."[2]

إن اقتران العلم والعمل شبيه باقتران الإيمان بالإسلام، فالإيمان من جنس العلم، والإسلام الظاهر من جنس العمل، لذا فإن "الإيمان هو الإذعان إلى الحق: على سبيل التصديق له واليقين، ولهذا وصف الله الإيمان والعلم بوصف واحد فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ووجل القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق

---

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣م، ص ٨٥-٨٦.

(٢) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد البر. **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، ط١، ١٩٩٤م، باب: جمع في فضل العلم، ج١، حديث رقم ٢١٤، ص٢٠٢.

باليقين، هذا أصل الإيمان.[1]

٤- الأفكار والبرامج:

خلاصة القول في علاقة الفكر بالإيمان والعلم والعمل إن الفكر عنصر أساس في هذه المفاهيم الثلاثة. وقد لاحظنا أن العلم بمدلوله القرآني يتّسع ليشمل: العلم بالأشياء، والعلم بالسلوك، والعلم بالعقائد، أما الفكر فيشتمل على تصورات ثلاثة : فهو نظر استدلالي ينتقل من المعلوم إلى المجهول، ونظر تقويمي يبحث في الأشياء من جهة انتفاع الإنسان بها، ونظر استشرافي يبحث في العواقب و المآلات.

"ويترتب على هذا أن وجه الصلة بين العلم والفكر هو كالتالي:

أ- أن العلم يحتاج إلى الفكر لكي يحصّل مشروعيته، فالعلم لا يكون مشروعاً حتى يكون نافعاً، ولا يكون نافعاً حتى يحمل في طياته فكراً، وما يطلق عليه اسم العلم النافع، إنما هو العلم الذي يزدوج بالفكر.

ب- أن الفكر يحتاج إلى العلم لكي يحصّل مصداقيته، فالفكر لا يكون صحيحاً حتى يكون حقيقياً، ولا يكون حقيقياً حتى يحمل في طياته علماً. وما يُدعى باسم الفكر الصحيح، إنما هو

---

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تعليق: محمود بيجو، دمشق: دار اقرأ، ٢٠٠١م، ص١٢٦.

الفكر الذي يزدوج بالعلم."[1]

أما علاقة الفكر بالعمل فيلخصه الراغب الأصفهاني في حديثه عن أقسام الفعل، والفعل عنده أشمل من العمل، على الوجه الآتي: "الفعل الإنساني ثلاثة أضرب، نفساني فقط، وهو الأفكار والعلوم وما ينسب إلى أفعال القلوب، وبدني وهو الحركات التي يفعلها الإنسان في بدنه كالمشي والقيام والقعود. وصناعي وهو ما يفعله الإنسان بمشاركة البدن والنفس كالحرف والصناعات."[2] ومن البدهي أن الأفكار والعلوم التي تقوم القلوب بفعلها هي التي تحفز الإنسان على الفعل البدني، بما فيه من مقتضيات الإيمان والطاعة وحسن والخلق، كما تحفزه على الفعل الصناعي الذي يقتضي إتقان المهن والصناعات المفيدة والقيام بخدمة الناس بما تقتضيه حياتهم.

فالعلم يثمر الإيمان، ويتبع الإيمان عمل وتطبيق، فعندما يعلم الذين أوتوا العلم أن هذا القرآن هو الحق الذي أنزله الله سبحانه، يؤمنوا أو يثبتوا على الإيمان وتخشع قلوبهم وتطمئن. وبذلك يستحق هؤلاء المؤمنون أن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم في دينهم ودنياهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ

---

(١) عبد الرحمن، طه. **سؤال العمل: بحث عن الأصول العلمية في الفكر والعلم**، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢م، ص ٣٠٨.

(٢) الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

خامسا: مصطلح الفكر الإسلامي

مصطلح "الفكر الإسلامي" مصطلح حديث انتشر استعماله في القرن العشرين على وجه الخصوص، لتمييز ما يريده المفكرون المسلمون بديلاً أصيلاً عما أخذ ينتشر بين المسلمين من عناصر الفكر الغربي الوافد. ولم يعرف هذا المصطلح في التراث الإسلامي بهذا اللفظ، على الرغم من أن مفهوم الفكر والتفكر في القرآن الكريم والتراث الإسلامي، مفهوم عريق وممتد على مساحة الزمن.

لقد غلب على ما نسميه اليوم"الفكر الإسلامي" في الكتابات المبكرة في التاريخ الإسلامي استعمال مصطلحات أخرى مثل العلم والفقه. وهي مصطلحات سبقت إلى ميدان التدوين والتأليف. فكان الفقه في الدين يعني مطلق الفهم قبل أن يصبح مصطلحاً على علم مخصوص. ومع ذلك فقد عُرف من أهل العلم من الصحابة من تميّز بعلم من العلوم دون غيره، فكان أعلم الصحابة بالفرائض زيد بن ثابت، وكان أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وهكذا. وقد عرف تاريخ الإسلام عبر القرون نماذج من العطاء الفكري الإبداعي في ميادين العلوم المختلفة، نذكر منها:

- الجاحظ في القرن الثاني الذي كتب في الفكر الاقتصادي،

- والحارث المحاسبي في القرن الثالث الهجري الذي كتب في

الفكر النفسي،

- والقابسي في القرن الرابع الذي كتب في الفكر التربوي،

- والماوردي في القرن الخامس الذي كتب في الفكر السياسي،

- والزرنوجي في القرن السادس الذي كتب في الفكر التربوي،

- وابن خلكان في القرن السابع الهجري الذي كتب في الفكر التاريخي،

- وابن خلدون في القرن الثامن الذي كتب في الفكر الاجتماعي والعمران البشري.

لكن بعض أهل العلم في الدائرة الإسلامية من لا يرتاح للحديث عن الفكر الإسلامي، مفضلاً الحديث عن العلوم الإسلامية في أطرها التقليدية التي ظهرت في القرون الخمسة الأولى. وسوف نجد من يرى أنَّ العلم هو العلم الشرعي الذي تخصص فيه، وغيرُهُ من العلوم تَبَعٌ له، وسوف نجد أن كثيراً من هؤلاء يرون مصطلح الفكر هو نكوص عن العلم الحقيقي، وأنَّ التركيز على الفكر الإسلامي القائم على النقد العقلي والنظر المقاصدي، هو استخفاف بالنصوص وهروب من استحقاقاتها.

ومع كل هذا التحفظ لدى فئات من أهل التخصص في علوم الشريعة التقليدية، فإنَّ نماذج من المؤلفين والكتاب والنشطاء لا يُشك

في انتسابهم الإسلامي، ومرجعيتهم الإسلامية، وجهودهم في "الجهاد الفكري" وتضحياتهم من أجل رفعة شأن الإسلام، أنجزوا إنجازات مقدّرة من العطاء العلمي والفكري والعملي، وجاءوا من تخصصات متنوعة، فكان منهم عسكريون محترفون، وكان منهم مهندسون وأطباء، وعلماء من تخصصات الكيمياء والفيزياء وعلم النفس وغير ذلك. لكن من الإنصاف أن نشير إلى أن بعض من عُرف في ميدان الفكر الإسلامي، أو حاول أن يعرِّف بنفسه في هذا الميدان، كانوا دخلاء على الفكر الإسلامي، وأشعلوا في ميدانه معارك استغرقت كثيراً من الجهد والوقت، وربما كانت جهود بعضهم ناتجة عن اجتهادات خاطئة، ومحاولات مخلصة ينقصها العلم، ولكن بعضها الآخر كان عملاً مدبراً ماكراً، يقصد به الإسهام في إحداث البلبلة والفوضى الفكرية في المجتمعات الإسلامية.

سادساً: الفكر والعاطفة

إن البناء الفكري ليس جدلاً فكرياً جافاً، خالياً من العاطفة والمشاعر، وإنما هو إيمان يدفع إلى العمل، إنَّه حالةٌ عقلية ووجدانية تنبثق عنها أشكال من السلوك والتعامل مع الأفكار والأشياء والناس. وإذا كان الفكر هو وَعْيُ الإنسان بذاته وبالمحيط من حوله، فإنَّ مشاعر الإنسان هي عنصر أساس من عناصر الذات البشرية، فالوعي على هذه المشاعر لا يقل أهمية عن الوعي بالعلم والمعرفة

اللازمة لاتخاذ القرار المناسب، أو القيام بعمل محدد.

هل الأفكار مجردة عن المشاعر، وهل يمكن تجريدُها عنها، وهل ثَمَّة مصلحةٌ في أن يحدث هذا التجريد لو أنَّه كان ممكناً؟!

عندما **تَحْكُمُ** على فكرة ما بأنها جيدة أو سيئة، وعندما **تُقَرِّرُ** أنّ تلك الفكرة تتَّصف بأنها إيجابية أو سلبية، ألا يعنى ذلك أنك تجيب عن سؤال: كيف **تَشْعُر** إزاء تلك الفكرة؟!

عندما يكون عليك أن تقوم بعمل من الأعمال، ألا **تَشْعُر** بفرق كبير، بين أن **تُفْرَضَ** عليك فكرة معينة لتقوم بذلك العمل بموجبها، وأن **تَخْتَار** بنفسك تلك الفكرة؟!

روى البخاري في الصحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لا يقْضِيَنَّ حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان"[1] وهذا الحديث الشريف أساس في فهم العلاقة بين الفكر والعاطفة. وروى الأمام أحمد في الموضوع نفسه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حُبُّك الشيءَ يُعْمي ويُصم."[2]

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٢م. "حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عبد الملك بن عمير سمعت عبد الرحمن بي أبي بكرة قال: كتب أبو بكرة إلى ابنه -وكان بسجستان- بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان، فإن سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان." كتاب: الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، حديث رقم ٧١٥٨، ص١٧٦٨.

(٢) أبو داود، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م، كتاب: الطب، باب: في الهوى، حديث رقم (٥١٣٠) عن أبي الدرداء، ج٤، ص ٣٣٦.

ويرى مالك بدري أن الحالة الانفعالية هي أحد الأبعاد المؤثرة في تفاوت الأفراد في درجة التفكّر، "فالتفكّر يحتاج إلى الطمأنينة والهدوء النفسي والصحة الجسمية والنفسية... وهناك العديد من الأبحاث التجريبية التي تؤكد أن التركيز الذهني وحل المشكلات، يضعف مع ازدياد التوتر والقلق." وتكون الحالة النفسية أحياناً حالات مرضية واضحة، فالعصابيون مثلاً تكون قدرتهم على التفكير والتدبر ضعيفة، والذين ابتلاهم الله بالذهان أو الجنون أو التخلف العقلي أو بذهان الشيخوخة (الحزن) لا يستطيعون التفَكُّر والتدبر.[1]

(١) بدري، مالك. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية**. هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٩٩٣م، ص ٩٠-٩١.